● الفصل الثالث

رسائل «نظام الملك»
وأماليه فى الحديث

بعض رسائل النظام، خلاصتها، موضوعها،
صلتها بكتابه ـ الوصايا ـ.
مجلساه فى الحديث: وصفهما والغاية
منهما، والفرق بينهما. أحاديث متفرقة.

أ- رسائلـــه:

إن لـ«نظام الملك» ـ كما تدل النصوص التاريخية فى أمهات المصادر العربية والفارسية ـ رسائل عديدة كانت تقتضيها ظروف حياته، فقد شغل منصب الوزارة لدولة السلاجقة وكان فيه وزيرًا مفوّضًا بل رأس الدولة المفكر، وقلمها المدبر طوال ثلاثين عامًا، فإذا شُرّعت قاعدة جديدة استنير برأيه وإذا نظّم عهد أو صدر مرسوم فبمداد دواته، وثمة شيء آخر يفرض عليه تدوين الرسائل إلى أمراء الأقاليم وحكام الجهات المختلفة.. ذلك هو اعتماد السلطان عليه لبراعته فى الإنشاء، ودقته فى حسن الأداء فضلاً عما عرف به من دهاء سياسى، وبُعْد نظر فى معالجة المشكلات والتعبير عنها بلباقة الخبير المحنّك، العارف بقواعد اللغة وأسرار بلاغتها.. ولو رجعنا إلى ما أشار إليه ابن الجوزى وسبطه وابن الأثير فحسب من ردود ومراسلات جرت بينه وبين دار الخلافة والمتصلين به من العلماء والموفدين إليه، ومنه إلى بغداد لعرفنا هذا العدد الوفير من الرسائل السياسية التى فقدت ولم نعثر إلاّ على النزر اليسير منها.

لقد كان «النظام» ـ كما يظهر من خلال سيرته ـ يواصل رسائله إلى دار الخلافة ليزوّدها بأحدث الأنباء عن الفتوح وهو برفقة السلطان: ففى سنة ٤٥٦هـ ورد كتاب منه يخبر فيه بأن السلطان ألب أرسلان بلغ مواضع لم تجر العادة فى بلوغها وفتح بلادًا عظيمة وأنه سائر إلى فتح سائر بلاد الروم[1]. وفى ٤٦٥هـ أرسل خطابًا إلى الملك قاورت عندّ دعوته ضد السلطان ـ ملكشاه ـ

(١) السبط ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ ورقة ٩٨.

مطالبًا بالعرش يقول عنه «الحسينى»: «إنه يحمل من المواعظ والنصائح مايهدى إلى سبيل الرشاد ويوضح له السداد»[١]. . وفى حوادث سنة ٤٦٨هـ ورد سعد الدولة الكوهرائين بغداد وكان معه كتاب مختوم إلى الخليفة وظنّ فيه عزل «نظام الملك» للوزير ابن جهير ولمّا فضّ وجد فيه إنهاء عن بعض التصرفات فطابت نفس الوزير ثم جاءت الكتب بالإفراج عن إقطاع الخليفة التى منحت سنة ٤٦٦هـ لأمراء التركمان[٢]. . وفى عام ٤٧٥هـ وصل كتاب من «النظام» إلى مسلم بن قريش يعتب عليه لما سمعه عنه من مكاتبته صاحب القلعة[٣].

وخامس هذه الرسائل كان أرسلها إلى الوزير عميد الدولة بن فخر الدولة ولكن لم نعثر على شىء من تعابيرها أيضًا سوى ما أشار إليه السبط فى عقب رسالة «النظام» إلى ابنه ـ فخر الدولة ـ فقال: «وذكر عتابًا طويلاً ممزوجًا بتهديد»، وكذلك كتب إلى عميد الدولة[٤].

ومما وصل إلينا من رسائله رسالة حملها ـ كواهرين ـ شحنة العراق الى الخليفة تتضمن الشكوى من بنى جهير وسأله عزل فخر الدولة من الوزارة[٥]، ثم راسله بعد ذلك فى إعادتهم بعد أن خرج إليه عميد الدولة إلى المعسكر السلطانى واسترضاه[٦]. فجاء مضمونها: «إذا لم يكن أمير المومنين يرضاه فى خدمته وقد انصرفوا عن حضرته وقصدونا ملتجئون إلينا، ومستجيرون بنا، فلابد من مقابلة ذلك بما يصلح أحوالهم ويحقق فينا ظنونهم»[٧].

---

(١) أبو الفوارس الحسينى ـ أخبار الدولةالسلجوقية.

(٢) السبط ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٦٨هـ.

(٣) المصدر السابق ـ حوادث سنة ٤٧٥هـ ورقة ١٧٦ ص ٥٦.

(٤) المصدر السابق ـ حوادث سنة ٤٦٩- ٤٧٠هـ.

(٥) ابن الأثير ـ والكامل والسبط ـ حوادث سنة ٤٧٦هـ.

(٦) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٧١هـ، والسبط ـ حوادث سنة ٤٧٦هـ.

(٧) السبط ـ حوادث سنة ٤٧٦هـ ورقة ١٧٩.

ورسالة بعث بها إلى «فخر الدولة» ابن جهير وزير الخليفة المقتدى بأمر الله على إثر الفتن الدينية التي أثارها ـ أبو نصر القشيرى ـ بين الحنابلة والشافعية فى بغداد، وقد ضمّنها امتعاضه مما جرى، والغضب لتسلط الحنابلة على غيرهم، وضرورة الحسم فيما يتعلق بمدرسة النظامية[1].

وأخرى أرسلها إلى الأستاذ أبى إسحاق الشيرازى عميد النظامية ببغداد جوابًا على بعض كتبه الصادرة فى معنى الحنابلة وغيرها حينما اشتدت الفتنة وقتل من الناس عدد كبير حيث كوتب بذلك فجاءت مكاتبات منه بالجميل كما عبّر عنها ابن الجوزى[2].

وبعد تتبّع وجهد وسفر إلى إيران صيف ١٩٥٢م كان مما اهتديت إليه بعض تلك الرسائل فى ثنايا مجاميع قديمة مازالت مخطوطة فى كبار المكتبات بطهران وطوس.. واحتفظت بصور لكل نسخة منها.. وظهر لى من خلال دراستها حقائق جديدة لاشك بأنها ستغيّر من أحكامنا على «نظام الملك» والأحداث التى جرت على يديه، أو كانت بإشارة منه فى تلك الفترة التاريخية الشائكة. كما سترسم «للنظام» صورة تكشف عن شخصيته أكثر دقة وأشد وضوحًا.

ولسنا ندرى ماذا تخبئ ـ تلك الخزانات المليئة بالمخطوطات الفارسية القيّمة التى لم تفهرس بعد أو فُهرس بعضها ولم تطبع، أو طبعت ولم تترجم إلى العربية.. وإذا ما أتيح لمكتبتنا الاطلاع فليس من شك بأنها ستلقى ضوءًا مجليًا على كثير من غوامض تاريخنا السياسى والأدبى والمذهبى مازالت مثار جدل وخلاف بين الباحثين.

وعلى الرغم من كل ذلك، وما لقيته المكتبة الإسلامية من كوارث طبيعية وسياسية ومذهبية أوشكت أن تمحوها من الوجود قد حفظت لنا الأقدار أو

---

(١) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ حوادث سنة ٤٦٩هـ، والسبط ـ حوادث نفس العام.

(٢) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٧٠هـ.

المصادفات تراثًا ضخمًا من مجموعة رسائل كتبها- النظام- فى مناسبات ولأغراض مختلفة. . وقد حاولت جاهدًا أن أرتب مجموعة رسائله هذه ترتيبًا زمنيًا مستعينًا بتاريخ الأحداث والمواضيع التى تضمنتها قدر المستطاع.

الرسالة رقم (١) :

من رسالة لابنه «فخر الملك»:

وفى مخطوطة فارسية قديمة أحتفظ بنسخة مصورة منها قدّم الناسخ ملخصًا لهذه الرسالة تحت عنوان «دستور الوزراء»[١] ومهّد لها بقوله:

فى عهد السلطان ـ ألب أرسلان ـ فوضت سلطنة فارس إلى معز الدين جلال الدولة ملكشاه، وأسندت وزارته إلى نظام الدين فخر الملك بن «نظام الملك» سنة ٤٦٠هـ. . فى ذلك العهد كتب الخواجة «نظام الملك» رسالة إلى ولده «فخر الملك» عند تسنّمه دست الوزارة لتكون دستورًا لسيرته فى الحياة. ولما كان كل وزير محتاجًا إليها اقتطفنا منها قدر الحاجة ما يلي:

قال الخواجة «نظام الملك» ـ الحسن بن علىّ الطوسى ـ فى أول الرسالة: «فى الوقت الذى أمرنا فيه ولدنا الأعز أن يذهب إلى طوس كتبنا له كتابًا بخطنا وذكرنا فيه شروط ذلك العمل».

ثم يسرد الناسخ مقتطفاته من الرسالة فى أربع صفحات من القطع المتوسط، فى ثناياها إرشادات عامة متفرقة وموجزة كأنها خلاصة لبعض موضوعات كتاب الوصايا، مما يدلنا على أنها والوصايا لشخص واحد بناء على وحدة المعنى والغاية فيهما معًا. أمّا الأفكار الجديدة التى تطرقَتْ إليها فهى:

١- التوصية باحترام الخواجة العميد أبى سعيد المستوفى ـ البيهقى.

٢- العناية بدراسة العربية تكلمًا وكتابةً، وإنشاءً وخطًا لأن من لا يعرفها ينتقصه أهل فارس لأن جلّهم من الفضلاء. . لذلك فقد أرسل إليه الأستاذ ـ

(١) مخطوطة باسم ـ تحفة بهائى ـ مؤرّخة فى سنة ٧٩٣هـ ومرقّمة.
انظر كذلك: ملحق رقم ٧ من البحث.

أبا المكارم ليتعلم عليه فى أوقات الفراغ من الأعمال الملوكية وأن يتكلم معه، وأن يتبادله الرسائل بالعربية لتحصل له ملكة الإنشاء، كما أكد عليه بطلب الأستاذ ـ عبد الله الطهرانى ـ الخطّاط المعروف ليتعلم عليه الخط.

٣- السعى إلى امتلاك ما يدرّ عليه وما يحتاجه من مصاريف يومية وأن يختار عددًا من المعتادين للمتاجرة له على أن يقرر لهم مبلغًا من المال، وأن تكون بضاعته على بغاله الخاصة به.

والرسالة ـ كما تدل بعض خصائصها ـ أنها أولى رسائله لابنه «فخر الملك» وكما أنها فى التربية والتهذيب والحثّ على التعلم والإقبال على المعرفة والتحلى بآداب السلوك لتحسن علاقته بالناس، وأنها وصلتنا مقتطفات منها اختارها الناسخ على قدر الحاجة كما روى لنا.

ولئن صدق الظن بأنها من الأصول لكتابه المعروف باسم «الوصايا»، فإنها ستحدد لنا بداية تأليفه الذى يحتمل بعض المؤرخين أنه ألّفه فى أخريات أيامه، وعلى إثر اشتداد الأزمة بينه وبين السلطان ومللله من منصب الوزارة، كما تدعم رأينا بأن مواده الأولى أعدت قبل هذا بأعوام.

الرسالتان رقمى (٢ ، ٣):

رسالتان أخريان أثبتهما المؤرخ الفارسى «سيف الدين عقيلى» فى كتابه المعروف «بآثار الوزراء» المخطوط حتى الآن[١].

الأولى: كتبها «نظام الملك» إلى ولده «فخر الملك». (وهى غير السابقة).

والثانية: كتبها «نظام الملك» إلى ولده «مؤيد الملك».

ونحن ـ وإن وجدنا عند مقابلة هاتين الرسالتين ومقارنتهما وتشابهما فى بعض تعابيرهما ومحتوياتهما، ولكن الواقع الذى لا مرية فيه أنهما تختلفان فى إطارهما العام لاختلاف مناسباتهما وظروف كتباتهما، الأمر الذى لا يدع مجالاً للشك بأنهما رسالتان كتبتا لأسباب متنوعة كما كانا إلى شخصيات مختلفة.

---

(١) آثار الوزراء، والملحق رقم ٨، ٩ من البحث.

تحدث فى الأولى إلى ابنه «فخر الملك» كمن يريد إعداده لمستقبل كبير فى الدولة، فهو يوصيه بالعمل الطيب لترتاح منه الرعايا ويقبلوا على كسب معاشهم فارغى البال، ويوصيه بقضاء حوائجهم وفتح بابه لحل مشاكلهم يومًا فى الأسبوع، وأن يتفقد خواصه وأمراء عسكره والشيوخ والموالى والأئمة وأن ينظر إليهم بعين الحرمة ويعينهم على أمور دنياهم، ويدعوهم إلى مائدته فى الأسبوع مرتين ويخلع عليهم فى النيروز والعيدين ويقبل شفاعتهم فيما هو ممكن وجائز... والاعتذار بالكتابة وألاّ يغفل الولاة فى النواحى فيلحق الرعايا حيف عظيم، ويصبح الفقراء معذبين مثقلين، وأن يضمن أمن الطرق للقوافل والقضاء على السرّاق وقاطعى الطرق ومن يهتك سمعة النساء، وأن يفتح دار الضرب ويعيّن عليها متوليًا شديداً، وأن يكون وازن العيار أمينًا وأن يراقب الباعة والدلالين وأن يؤدب غلمانه ويصل من يستحق منهم، ويصلح بين الدهاقين، وأن يدعو الناس لصلاة الجمعة ويصلى الظهر فيهم فى الجامع، لتظهر بركة الخلافة على أحواله.

ولم يحرم ابنه ـ مؤيد الملك ـ من نصائحه فقد كان موضع رعاية بعد ولده الأكبر ـ فخر الملك ـ ولكنه لم يكن يتوسم فيه مشاركة فى وزارة يومئذٍ، كذلك لم يخف عليه مخاطرها فكانت رسالته إليه طرازًا آخر فى التوجيه والإرشاد، حرّضه فيها على التعلم وتهذيب النفس ووعظه فيها بحسن الاعتقاد، وهو الإيمان بوحدانية اللّه وأبديته لأنه أساس الخير فى العالمين، ثمّ برسالة محمد وحب آله وصحبه، وألاّ يضمر عداوة لأحد من المسلمين ويحترم العلماء لأنهم ورثة الأنبياء، ولاسيما المنتسبون إلى شجرة النبوة.

ثمّ يضع منهجًا لحياته اليومية: فعليه أن يستيقظ مبكرًا، وأن يؤدى فريضة الصلاة ويقرأ وردًا من القرآن، ثمّ يجلس إلى المتخصصين فى النحو والصرف والهندسة، والمنطق، والخط، ويستذكر من الشعر العربى والفارسى والرسائل والحكايات والأمثال ويقضى ساعة فى أول الليل للمباحثة.

ثم ينتقل به إلى نظرات خُلُقيّة فينبغى أن يعوّد لسانه على الصدق ويحفظه عن الغيبة والكذب ـ والوفاء بالعهود والكسب بالعمل الشريف والحذر من المتملقين والطمع فى أملاك الناس وتجنّب الظلم والحسد والتكلف، وأن يستمع لكلام العقلاء ويجالس أهل الصلاح حتى يصل إلى درجة الاستقلال إن شاء الله.

الرسالة رقم (٤):

ورسالة أخرى كتبها «النظام» إلى الإمام أبى إسحاق الشيرازى ذكر موجزها ابن الجوزى فى منتظمه[١]، ومقتطفات منها آخرون، وأشار إليها فريق ثالث مما يثبت نسبتها إليه.. وذلك على إثر الفتنة التى أثارها «أبو نصر بن الإمام القشيرى» عند مروره ببغداد للحج عام ٤٧٠هـ، والتى شغلت دار الخلافة وديوان السلطنة شهوراً وقتل بسببها عشرات من عوام الحنابلة والشوافع.

وهى رساله على صغرها، فإنها تدلنا على مقدارتجرد «النظام» من التحزبات العقائدية ومدى نزاهته عن التعصب الطائفى وكيفية نظرته للخلافات المذهبية نظرة السياسى المتدين الذى يود التوازن بين الفرق المختلفة، وإن كان يميل ويعمل لرفع شأن طائفته، فهو يرد على الإمام الشيرازى تعصبه للشافعية وإطالته الخطاب لتأليبه على الحنابلة، مع أن واجب السياسة والعدل يقضيان عدم التحيّز إلى طائفة دون أخرى، وأنه من الأولى به إذاعة السنن لا إشاعة الفتن، وأنه لم يبن النظامية إلاّ تكريمًا للعلم واحتفاءً بأهله وليس لتفريق الكلمة واختلاف الأمة وإذا لم تسر الأمور وفق ما أورده فليس إلاّ التقدم بسدّها.

ثمّ يثنى على ابن حنبل ويشيد بمركزه بين الأئمة وأنه ليس فى الاستطاعة دفع أتباعه عما اعتقدوه، ويختم رسالته بألاّ يستمع الإمام إلى كل ما ينقل إليه، وألاّ يثيره كل ما يجرى أمامه، لأنه رجل سليم الصدر، سلس الانقياد، وعند ـ النظام ـ من تواتر كتبه ما يدل على سرعة تأثره.. والسلام.

(١) ابن الجوزى ـ المنتظم، وانظر: الملحق رقم ١٠ من هذا البحث.

الرسالة رقم (٥) :

وللدواعى نفسها التى كتبت بها رسالته السابقة فقد أرسل إلى الوزير «فخر الدولة» خطابًا أشار إليه المؤرخون، وأثبت مضمونه «سبط بن الجوزى» ذكر فيه ما بلغ سمعه من أنباء تجدد الفتنة، وحمّله المسئولية فى وقوع المعارك الدامية واتهمه بالميل ضد الشافعية والعمل مع مناوئيهم بدلاً من مؤازرتهم.. ثم يذكّره بأنه إنما شيّد لهم مدرسة لتكون مثواهم، وأن يحسم القول فيما يتصل بها، فإمّا إغلاقها وإمّا رعاية أبنائها لئلا يجرى على من يتفيأ ظل عنايتى ويحاط بعين رعايتى ما يجرى، «ثم يتهم أصحاب» ابن حنبل بالانتحال وسوء الأفعال، وأنه برىء من ذميم طرائقهم وأقوالهم، وتجاسرهم على سبّ الأئمة وإيقاعهم فى علماء الأمة دون منع ولا معاقبة.. وأنه لم يغض الطرف عما يبدو منهم إلاّ ترفقًا أن يجرى فى جوار الخليفة وسدة الإمامة المكرمة ما يخلّ بلوازم الهيبة ويقلّل جوانب التعظيم والرتبة. ويقول «السبط»: «إنه ختم رسالته بعد عتاب طويل ممزوج بالتهديد».. وكذلك كتب لابنه ـ عميد الدولة أبى منصور[1].

الرسالة رقم (٦) :

وفى مخطوطة قديمة باسم «مجموعة منشآت أبو على حيدر»[2] عدة رسائل اعتمدها وعلّق بهامش صفحاتها، وذيّل فى خاتمتها كثير من العلماء فى مختلف العصور، وعدّها بعضهم نموذجًا صحيحًا للنثر الفارسى حينذاك فضلاً عن كشفها لأمور كانت مجهولة لدى المؤرخين فى ذلك العصر.. وما يثبته الناسخ فى هذه المجموعة:

أ ـ رسالة الخواجة «نظام الملك» إلى السلطان ملكشاه.

ب - جواب السلطان ملكشاه إلى الخواجة «نظام الملك».

---

(١) سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٦٦-٤٧٠هـ، وانظر: الملحق رقم ١١ من البحث.

(٢) كذلك فى مجموعة مكتبة ملّى ملك تحت رقم ٤٥، وانظر: الملحق رقم ١٢ من البحث.

ومع العلم بأن الرسالتين معًا لم تتجاوزا ثلاث صفحات بالقطع المتوسط.. فإن «النظام» يطلب فى رسالته من السلطان إعفاءه من الوزارة والسماح له بالسفر إلى الحج ليقضى بقية عمره فى كنف بيت اللّه الحرام، ويقوم بواجب الدعاء لدوام السلطنة إلى الأبد. أمّا السلطان فإنه يشيد بوزيره، ويثنى على حسن تصرفه ويعترف له بأن راحة الرعايا واستقرار الأمور لم تحصل لولا صواب تدبيره وصحة رأيه «ولم ينتظم نظام الملك بغيره....»، ثمّ يشير ملكشاه فى جوابه إلى أن التوجه الخسروى الملوكى لم يزل مصروفًا نحوه ومقرونًا به، وهو سيبقى كذلك مادام حيًا موجودًا.. ثمّ يثنيه فى نهاية رسالته عن السفر إلى الحج مشيرًا إلى أن: «قضاء حاجات الناس من الفقراء العاجزين بهمة الوزير تعادل حجات كثيرة».

ولم أعرف أحدًا من المؤرخين أشار إلى هذه الرسالة التى بسببها قد تأجل مشروع حجّه إذ لم يقبل طلبه ليكون حرّ التصرف فى حضره وسفره، والتى أشارت هذه الرسالة ولو من طرف خفى إلى رغبة «النظام» فى التخلى عن منصبه فى الوقت الذى تؤكد فيه تمسك السلطان به وعدم استغنائه عنه إلى هذا الوقت وهو عام ٤٨٠هـ.

وبهذا تنتفى تلك الأسطورة التى تناقلها معظم المؤرخين من العرب والفرس والتى تدّعى: بأنه جاء إلى «النظام»، وهو على أهبة السفر للحجّ شخص بزى صوفى وأوصل إليه رقعة مفادها: أنه رأى رسول اللّه ﷺ فى المنام وهو يقول له: «امنع الخواجة من السفر وإلزمه البقاء إلى جنب السلطان التركى لقضاء حاجات المظلومين».. فأذعن لأمر رسول الله ﷺ ولم يسافر.

والذى يلاحظ أن الرسالة الملكشاهية والرؤيا النبوية يتضمنان تعليلاً واحدًا لتأجيل فكرة السفر أو العزوف عنه.

* * *

ومن خلال هذا العرض الخاطف لرسائل «النظام» يتبين لنا أنها تتصل بوصاياه من وجوه، كما تتصل بكتابه «السياسة» من وجوه أخرى، حتى ليظن القارئ أنها سلسلة ذات ثلاث حلقات يكمل أحدها الآخر فهو يورد القصة فى سياستنامة كما يوردها فى الوصايا، ويورد الفكرة فى الاثنين معًا ويعيدها ولو بأسلوب آخر فى بعض رسائله كمسألة المرأة ومشكلة العطالة وقضية الألقاب[1].

ومن المحتمل أن يكون «النظام» قد ضمّ بين رسائله لأبنائه تلك، وأضاف إليها خلاصة تجاربه وأحداثه الجديدة بآداب الوزارة، وواجب الوزراء واختصاصاتهم ولاسيما فى الفصل الأول وما تعرض له من مخاطر هذا المنصب ومساوئه وجعل منه كتيبًا صغيرًا قدّمه لابنه «فخر الملك».[2]

غير أننا لا نستطيع القول جازمين بأن هذه الرسائل هى الأصل الوحيد لكتاب ـ الوصايا ـ لأن غالبية ما يحتويه يختلف عما فيها كل الاختلاف، ولأن النقاط الفارقة تعبّر عن تجارب ونظرات فى السياسة والاجتماع لاتوجد كما بحثها فيه.. ولأن شخصية الوزير النافذة تبرز بروزًا قويًا فى ثنايا فصوله، كما تشف بعض فقراته عن الأصداء الحزينة.

وسواءٌ صحّ ما احتملناه فى الحالتين: أوّلاً فإن وصول هذه الرسائل إلينا وما تضمنتها من آراء وتوصيات متشابهة لتدعّم صحة نسبة الكتاب إلى «النظام»، كما تثبت صدق انتساب هذه الرسائل إليه ثانيًا.

* * *

(١) انظر: سياستنامة، والوصايا.

(٢) وهناك رسالتان لابنه فخر الملك وثالثه لابنه مؤيد الملك، ورابعة وخامسة بينه وبين السلطان ملكشاه بالفارسية وقد عربتها مع مقدمة ضافية لها. انظر: مجلة ـ معهد المخطوطات العربية المجلد السابع الجزء الثانى فى: جمادى الأولى ١٣٨١ هـ = نوفمبر ١٩٦١م.

ب- أماليه في الحديث:

لقد كان أول ما عنى به المسلمون من تدوين هو جمع الحديث وتسجيله خشية ضياعه وخوفًا من الانتحال فيه.. ثم عنوا برواته عندما طال السند وتوفى أكثر رجاله وألّفوا فى ذلك الكتب الضخام خلطوا فيها بين الصحيح والموضوع، حتى قيل بإن الأحاديث التاريخية صارت بعد قليل أساسًا لما ألّف من كتب السيَر والمغازى، بدليل وجوه الشبه الكثيرة فى الأسلوب، وفى طريقة سرد الوقائع وحكايتها[1]. وربما صارت هذه أساسًا لكتب التاريخ ولاسيما بعد حذف الأسانيد منها.

وكان مردّ عنايتهم فى الحديث يرجع إلى ناحيتين: الأولى: لأنه يلقى ضوءًا على آى القرآن، فيفسر الغامض ويوضح المبهم والمتشابه من آياته ويفصّل المجمل ويقيّد المطلق ويخصّص العام من بيّناته. والثانية: لأنه يحتوى على أحكام أخر متممة لما جاء فى الكتاب بالإضافة إلى أنه شريعة كاملة فى مكارم الأخلاق والحثّ على البر والتعاون والتحلى بأفضل الصفات.

ولم يدوّن الحديث فى عصر النبوة كغيره من علوم العربية فنشأ عن هذا أن اصطنعت أحاديث كثيرة لأغراض سياسية ومذهبية مختلفة، وظهر الوضّاعون فى الحديث كما ظهروا فى الشعر مثل «ابن أبى العوجاء» الذى قال: «لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرّم فيها وأحلّل»[2] وبهذا دخل السنّة من الأحاديث المكذوبة ما صعب حصرها والتمييز بين الصادق والمنتحل. ولهذا اهتم العلماء بتدوينها، ووضعوا قواعد التعديل والتجريح لنقد رجال السند ولكن دون اهتمام كبير فى نقد الحديث نفسه، من حيث موضوعه ومعانيه وأسلوبه، وبذلك دخلت من الأحاديث الضعيفة ما لا يقل عن الصحيحة إن لم تَزِد عليها، وكان منها ما هو أقرب فى دلالته إلى الأساطير منها إلى منطق العقل، وأصبحت مصادر الحديث من السعة بحيث لا تتناسب وعمر الرسول ولا تتفق ومنطق رسالته.

(١) أحمد أمين ـ فجر الإسلام ص ١٥٧.

(٢) نفس المصدر ص ٢١١.

وما أن طلع القرن الثانى للهجرة حتى بدأ شعور الخلفاء بمـيـس الحاجة إلى تدوين الحديث يتضح سنة بعد أخرى فيشيرون على أعلام عصورهم بجمعه، ولعل ما فى الأحاديث من تأييد لمركز الخلافة وإطاعة الفئة الحاكمة من دواعى تنّبه الخلفاء لضـرورة تدوينـه كمـا كانـت مـن دوافـع الإضافـة عليـه. فتحـدث ـ المنصور ـ بذلك إلى الإمام ـ مالك بن أنس ـ لينشر كتابه «الموطأ» فى الأمصار، وحدّثه الرشيد فى أن يعلّقه فى الكعبة فمنعهما عن ذلك[1].

ولم ينته هذا العصر حتى رأينا حلقات السماع والإملاء فى دور العلماء والمساجد وغيرهما تزدحم برجال الحديث تمليه وتدوّنه، وسمعنا برحلات هواة الحديث إلى بلد قصى من أجل السماع لحديث واحد يرويه معدَّل عالى السند إذ ابتدأ التعليم فى الإسلام تملية وتحديثًا، وكان الدرس فيهما لا يخلو من فوائد لغوية وأدبية وتاريخية، ومن أمثلة ذلك فى هذا العصر أمالى الشريف المرتضى، كما وضعوا لهما قواعد وأحكام يجب على المملى والمـتملى اتباعها مثل: كتاب ـ أدب الإملاء والاستملاء لعبد الكريم بن محمد بن منصور السمعانى[2]. وصار الحديث بفنونه التمهيدية الموضوع الذى شغل أذهان القوم وأقلامهم طوال القرن الثالث والرابع الهجريّين وأصبح سببًا لايجاد فنون أخرى دعيت بعلوم الحديث كعلم الرجال ومصطلح الحديث ضمت إلى علوم القرآن المعروفة.. وصار الارتحال فى سبيل الاستماع على شيخ اشتهر بعلوّ سنده وصدقه من وسائل التعلّم المألوفة، فقد رحل «ابن ظاهر» من مصر لأجل ـ الفضل بن المحب ـ صاحب الخفاف، المتوفى سنة ٤٧٣هـ[3]. وممن شدّ الرحال إلى بغداد فى طلب الحديث «أبو الوليد الباجى القرطبى» المتوفى سنة ٤٧٤هـ[4].

وسواءٌ أكان الحديث منتحلاً أم صحيحًا فلم يغب على الحاكمين أثره فى

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) وقد طبع فى أبريل ـ ليدن سنة ١٩٥٢م.

(٣) أبو القاسم الفضل بن عبد الله بن المحب النيسابورى. قال عنه ابن ظاهر: «إنه قرأ عليه فى أول مجلس جزءين من حديث السراج فلم يجد لذلك حلاوة، وأنه لم يمتنع عليه أو طالبه بشىء، وكل حديث من الجزءين يساوى رحلة»: (الذهبى ـ السير، مجلد ١١ ص ٤٦٣).

(٤) سمع ببغداد والموصل وعاد إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر سنة، وصنّف وناظر ابن حزم فى مجالس كثيرة. (الذهبى ـ السير، مجلد ١١ ص ٥٣٩).

نفوس الناس، وربما كان هذا من دواعى وضعه كما ذكرنا آنفًا، لذلك فقد مُنع المحدِّثون والوعاظ من التحديث والوعظ، كما يمنع الخطباء والشعراء من إلقاء كلماتهم وقصائدهم أحيانًا خشية من إثارتهم، فقد منع السلطان ـ محمود ـ الوعاظ غير أبى حاتم بعد دخوله الرى وقتله الباطنية فيها، إذ كان لا يقدم شخص إلاّ ويعرض عليه اعتقاده[1]. وكذلك منعت الدولة الفاطمية ـ أباإسحاق الحبّال ـ المتوفى سنة ٤٨٢هـ من التحدث بجامع عمرو بن العاص، كما منعوا من الدخول عليه إلاّ بشرط عدم السماع عليه أو الإجازة منه[2].

وكان لعنايتهم بالحديث ظاهرة اهتمام أخرى تبدو لنا فى تحرّجهم من السماع على رجالات المذاهب المتطرفة، فكانوا يتخوّفون من الرواية عن المعتزلة، كما يخشونها عن الباطنية فكان «ابن الأبنوسى» المتوفى سنة ٥٠٥هـ المحدّث الصادق يقول: «كنت لا أسمع مدة من التنوخى لما أسمع من ميله إلى الاعتزال ثم سمعت منه».[3] وكذلك كان موقف علماء كل فرقة عن غيرها، فإذا تحدّثوا عن ابن البناء البغدادى قالوا: «إنه نقل عن خمسمائة مصنف سنة ٥٧١هـ» مشارًا إليه فى القراءات واللغة والحديث إلاّ أنه حنبلى المعتقد، وإذا ترجموا للعكبرى الأديب الإخبارى قالوا: «غير أنه كان يتشيّع»[4].

«نظام الملك» المحدّث:

أما «النظام» فقد غمرته موجة الإقبال على الحديث والتهافت على دراسته وحفظه فكان ولوعًا به سماعًا ورواية ـ فقد سمعه بأصفهان من محمد بن على ابن مهر مزد الأديب، وأبى منصور شجاع بن على بن شجاع، وبنيسابور عن

(١) الذهبى ـ السير، ترجمة أبى اسماعيل الهروى الأنصارى.

(٢) المصدر السابق ص ٥١٨، ٥١٩.

(٣) المصدر السابق جـ ١٢ ورقة ٦٤. هو أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبد الله النعمان المغربى. قال الصدفى: «دخلت عليه فظننى مدسوسًا عليه حتى بسطته وأعلمته أننى أندلسى فأجاز لى لفظًا. فقلت قبّح الله دولته أماتت السنة ورواية الآثار النبوية وأحيت الرفض والضلال وبثت دعاتها فى النواحى، تغوى الناس ويدعونهم إلى نحلة الإسماعيلية وبهم ضلت جبلية الشام، فنحمد الله على السلامة فى الدين».
(الذهبى - السير جـ ١١ ورقة ٥١٨، ٥١٩).

(٤) الذهبى ـ السير، مجلد ١١ ص ٤٦٣- ٤٧٠.

الأستاذ القشيرى أبى القاسم، وفى بغداد من أبى الخطاب بن البيطار وغيره[1]. وروى عن أبى مسلم الأديب صاحب ـ المقرى ـ وأبى سهل الحفص وإسماعيل بن حمدون، وبندار بن على، وأحمد بن الحسن الأرموى، وأميرك العروضى، ويوسف الخطيب وقاضينا أحمد بن عبد الكريم الخطيب.. إلى أن يقول ابن قاضى شهبة[2] نقلاً عن شيرويه فى تاريخ همدان: وسمعت منه بقراءة أبى الفضل القومسانى. وروى عنه جماعة منهم: أبو الفضل الأرموى، ومصعب بن عبد الرزاق الصيمى، وعلى بن طواد الزينبى، وأبو محمد الحسن ابن منصور السمعانى وكان آخرهم أبو القاسم نصر بن نصر العكبرى[3]. وغير هؤلاء من الأعلام من استملى على «النظام» مثل: الشحامى النيسابورى[4]، ومنهم من سمع عليه مثل: شيرويه بن شهردار فى اسفيدروذ بار[5]، وأبو الفتح محمد بن أبى الحسن البسطامى[6]، والرمانى الدامغانى بنيسابور[7]، والشيخ أبو الفتح المصيصى[8]، وأبو القاسم القاينى فى أصبهان[9]، وأبو القاسم عبد الله بن على بن إسحاق الطوسى[10] أخو «النظام» فى الرى، وأبو محمد السهلوكى[11]، وأبو نصر الشجاعى السرخسى[12] ببغداد، ثم أبو عبد اللّه الجوبانى المتوفى سنة ٥٣٠هـ.

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١١٥.
(٢) ابن قاضى شهبة ـ مناقب الإمام الشافعى وطبقات أصحابه ورقة ١٦٥.
(٣) المنتظم جـ ٩ ص ٦٤-٦٨ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.
(٤) الذهبى ـ السيّر جـ ١١ ص ٤٩٦.
(٥) السمعانى ـ الأنساب ـ مادة بسطام.
(٦) ياقوت ـ معجم البلدان ـ مادة «اسفيدروذبارز»، وطبقات الشافعية لابن الصلاح ورقة ٥٦.
(٧) السبكى ـ الطبقات جـ ٤ ص ٤٦١.
(٨) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣١٦.
(٩) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٨.
(١٠) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٤٥.
(١١) هو محمد بن محمد بن محمد بن أبى بكر، وفى الطبقات أبو الحسن: خطيب بسطام، مدينة بقومس وقاضيها تفقّه ببغداد عن الدبوسى. ولد سنة ٤٠٥هـ وهكذا، وتوفى سنة ٥٣٦هـ (المنتظم جـ ١٠ ص ١٠٠ والسبكى جـ ١ ص ١٨٣).
(١٢) هو محمد بن محمود بن الشجاع السرمرد. قدم من خراسان إلى بغداد وتفقّه على أبى يعلى الدبوسى، وروى عنه ابن عساكر وابن السمعانى والطائى، و توفى سنة ٥٣٤هـ (السبكى ـ الطبقات جـ ٤ ص ١٨٤).

وقد وصف لنا المعنيون بسيرته ومجلسه وهو وزير وكيف كان يجلس بعد صلاة الظهر لوعظ الناس ويقرأ بين يديه جزء من الحديث على شيخ كبير عالى الإسناد ويكرمه ويجلسه الى جنبه، ويكلّم الفقهاء فى المسائل ويقعد مطأطئ الرأس ويسمع جميع ما يجرى فى المجلس[1]. . وكان ممن عرفناه ممن يقرأ «للنظام» ويفيده الإمام المحدث أبو عبد الله السمرقندى[2].

ويورد لنا السمعانى قصة جرت فى إحدى مجالس الإملاء النظامية ذكرها بصدد شروط المستملى وألاّ يكون بليداً مغفلاً. قال نقلاً عن شيخه بأصبهان: كنا فى مجلس «لنظام الملك» أبى على الحسن بن على بن إسحاق الوزير فأملى: «أف للدنيا الدّنية، دار همّ وبلية». فقال المستملى، وهو سليمان بن إبراهيم الحافظ: «ونلية». فقيل له: «وبلية». فقال: «وغلبة». فقيل له: «وبلية». فقال: «وقلية». فضحك الجماعة. فقال «النظام»: «اتركوه»[3].

وكاد يتفق الذين ترجموا «للنظام» بأنه أملى مجالس عدة فى مدن مختلفة ومناسبات عديدة فحدّث فى أصبهان والرى ومرو ونيسابور وبغداد فى جامع المهدى ومدرسته بالرصافة[4]، وليس من شك بصواب ذلك لأن السماعات التى مرّ ذكرها تدل على حقيقته. . ولهذا عدّه «عبد الغافر» فى كتابه ـ السياق ـ من رجال الطبقة الثالثة، وقال عنه: «سمع وأملى سنين»[5].

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان جـ ٢ ص ١٣٩ ـ مادة «جوبان» .

(٢) هو ابن المقرئ المحقق أحمد بن عمر بن أبى الأشعث الدمشقى المولد البغدادى الدار، سمع من الكثيرين فى بغداد ونيسابور ومرو وجرجان وأصبهان وحدّث عن السلف وكتب الكثير، وكان يفهم ويروى مع الإتقان والتحرى والدين وسعة الأدب إذا اقرأ وأغرب. مات سنة ٥١٦هـ. (الذهبى ـ السير جـ ١٢ ورقة ١٠٨).

(٣) عبد الكريم بن محمد السمعانى ـ أدب الإملاء والاستملاء ص ٦٣ .

(٤) السبكى ـ الطبقات جـ ١ ص ١٤٠-١٤٥، والمنتظم جـ ٩ ص ١٦٤-١٦٨، والكامل جـ ١٠ ص ٨٤-٨٦، . ومرآة الزمان، ورقة ٢٠٨ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) اعتمدنا فى هذا على مخطوطة «المنتخب من سياق تأريخ نيسابور» لإبراهيم بن محمد بن الأزهر الشريفى ورقة ٥٥ .

وكان لولعه بالسماع وتحقيق الروايات أنه لم يسمع بمقرئ إلاّ وأحضره إليه وقرّبه منه وأقرئ عليه. حكى أنه لم يعرف بوجود الشيخ المعمر محمد بن أبى عمران المروزى آخر من روى صحيح البخارى عاليا فى زمانه إلاّ وطلبه، وحمل إلى الوزير ليقرأ عليه فقرأ بعض الحديث ثم رمته البغلة فمات سنة ٤٧١هـ[١].

ولشغفه بالحديث وتقديره لرواته كان يحضر مجالس المتحدثين ويتمع إليهم ويرتبط الفقراء منهم ويجرى الأرزاق مشاهرة عليهم. فمن هؤلاء أبو القاسم المقرء الضرير[٢] فلم يصل «النظام» خبر تضلعه بالقراءات وكثرة الروايات حتى بعث ليقعد فى المسجد للقراء، وأجرى عليه المرسوم، واستفادوا منه سنين إلى أن توفى بنيسابور.. وأبو على الوخشى، فلم يسمع «النظام» وهو ببلخ أن بقرية «وخش» شيخًا ذا رحلة ومعرفة حتى استدعاه وقرأوا عليه سنن داود وسمع منه فصدّره بمدرسته فيها إلى أن مات سنة ٤٧١هـ. ويحكى لنا أحد الرواة وقد سمعه يقول: «رحلت وقاسيت الذل والمشاق ورجعت إلى (وخش) وما عرف أحد قدرى فقلت: أموت ولا ينشر ذكرى ولا يترحم أحدٌ علىّ فسهّل اللّه ووفق (نظام الملك) حتى بنى هذه المدرسة وأجلسنى فيها أحدث.. وبقيت بعسقلان أيامًا بلا أكل فقعدت بقرب خبّاز لأشم رائحة الخبز وأتقوّى بها»[٣].. وأبو سعيد السجزى وكان قصير اليد فلم يسمع به «نظام الملك» حتى ارتبطه بناحية بيهق ثم بطوس للاستفادة منه ثم انتقل فى آخر عمره إلى نيسابور إلى أن توفى فيها سنة ٤٧٧هـ[٤].

---

(١) الذهبى ـ سير أعلام النبلاء جـ ١١ ص ٤٦٤.

(٢) هو يوسف بن علىّ المغربى الهذلى، عالم بالقرآن، كثير الروايات، مقدم فى النحو والصرف عارف بالملل (منتخب السياق، ورقة ١٠٥).

(٣) هو الحسن بن علىّ بن جعفر البلخى الوخشى ، وكان جوّالاً فى الآفاق رحل إلى العراق والشام والجبال والثغور وذكّر الحفّاظ وسمع منهم الكثير، ومن أساتذته الخطيب البغدادى (الذهبى ـ السير جـ ١١ ص ١٥٦).

(٤) هو مسعود بن ناصر بن أبى زيد السجزى المحدث الرحّال، سمع الكثير وجمع فأوعى من شيوخ الخطيب وما كان فى المحدثين أجود إتقانًا ولا أحسن ضبطًا منه (السياق ورقة ٩٢، والسير جـ ١٢ ص ٥٣٧-٥٥٨).

مجلسا إملاء الحديث:

فلا غرابة ـ بعد أن تزود «النظام» بثقافة دينية واسعة، وعاش فى عصر ازدحم بالمحدثين، بين ظهرانى أعلامه حتى ولع بالحديث وشغف بروايته ـ فلا غرابة بعد هذا كله أن نعرف «النظام» حافظًا محدّثًا كما عرفناه سياسيًا موهوبًا وأن يملى على الناس عدة مجالس فى الحديث، كما كتب فى السياسة ونظم الإدارة وأصول الحكم، ولا عجب ـ إذن ـ أن رأينا ـ ابن الصلاح ـ فى طبقاته يقول عنه: «سمع الحديث فأكثر وروى وأملى، وأملى بالعراق وخراسان وأصبهان وآران وسائر البلاد وحضر مجلسه الحفّاظ وغيرهم. ورغبوا فى السماع منه والرواية عنه»[1]. وكان يقول: «إنى أعلم أنى لست أهلاً لذلك، ولكن أريد أن أربط نفسى فى قطار النقلة لحديث رسول الله ﷺ» [2].

غير أنه لم يصل إلينا من مجالس إملائه الكثيرة التى أشار إليها معظم المؤرخين سوى اثنين: أولهما: وقد ألقاه فى نظاميته ببغداد عندما زارها لأول مرة وأعجب بطلبتها وأبدى استحسانه بها إلاّ أنه استصغرها. ويحدد لنا ـ العينى ـ مكان إلقائه وهو خزانة مكتبتها[3] كما يعين لنا ـ سبط بن الجوزى ـ وغيره الشهر والعام اللذين ألقى مجلسه الأول فيهما، وهو المحرم من سنة ٤٨٠هـ.

أمّا الثانى: فلابد أنه قد ألقاه فى العام نفسه حيث لم يكن فى زيارته الثانية لبغداد سنة ٤٨٤هـ ما يدل على طول مكثه وفراغ باله لإلقاء مجالس الحديث كما لم نجد أحدًا أشار لذلك، فضلاً عن النص الذى يؤرّخ لهما على لسان الرواة فى مقدمة المجلسين، والذى يدلنا على أنه ألقى الأول في مدرسته يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرم، والثانى فى جامع المهدى يوم الجمعة لثمان خلون من صفر من العام نفسه.

لقد احتوى المجلسان على أربعة وعشرين حديثًا وقد ضمّن المجلس الأول اثنى عشر حديثًا[4]، والثانى مثله. وسلسل السند فى كل منها وأشار إلى من

(١) طبقات الشاذلية ـ اختصار النووى ورقة ٥٢.
(٢) ابن خلكان ـ الوفيات جـ ١ ص ٣٩٥.
(٣) العينى ـ عقد الجمان ـ حوادث سنة ٤٧٩، ٤٨٠هـ ورقة ٣٩٤.
(٤) منها واحد ينتهى بالسماع عن عُيَيْنة، واثنان ينتهيان بالرواية عن الإمام الشافعى.

أخرجها من رجال الصحاح والمسانيد كما ذيّل كلا منها بأبيات رواها فى الأول عن الشافعى، وفى الثانى عن عثمان تدل على تذوقه للشعر العربى وحسن الانتقاء مع ملاحظة المناسبة والمطابقة لما يقتضيه المقام مما يضعف الدعوى القائلة بعدم فهم «النظام» للشعر وتقديره للشعراء.

إن نظرة شاملة لما تضمّنه هذان المجلسان من أحاديث تدلنا على أن «النظام» لم يكن يمليها ليربط نفسه فى قطار نقلة الحديث عن الرسول ﷺ فحسب، وإنما اختارها من بين مئات الأحاديث ليحلّ بها مشكلات الساعة التى كانت مثار اختلاف ومعارك بين الطوائف الإسلامية، والتى كانت تقلق راحة الدولة وتشغل بال كبار الموظفين. وكان فى اختياره ناجحًا إلى حد بعيد إن لم يكن موفقًا كل التوفيق إذ إنه في الوقت الذى كان يرمى من وراء إملائها إلى توحيد الصفوف ونبذ أسباب الشقاق والنزاع، فإنها كانت دعوة رقيقة لعقيدته ودفاعًا هادئًا عن سياسته، وردّا متزنًا على الاتهامات التى قيلت فى تعصبه وتحيّزه لمذهبه.

فقد أملى فى مجلسه الأول على طلبة النظامية وأساتذتها من الأحاديث ما يفيدهم فى التشريع وآداب العبادات كالصلاة وفضل رواية الحديث والحثّ على الاستقامة، وطلب الحكمة والإيمان بالقضاء والقدر ويوم المحشر، ويغتنم الفرصة فيروى لهم حديث الرؤية لله تعالى التى هى من أسباب الخلاف بينهم وبين الحنابلة وأنه يكشف الحجاب لأهل الجنة فينظرون إليه تعالى ولم يكن شىء أحب إليهم من رؤيته.. ثم يختمه بسماع عن شاهد عيان مع الإمام الشافعى حينما دخل مصر، وكيف خاف أهلها لأنهم مالكية فقيل له: «يا أبا عبد الله لو خرجت وجلست للناس وسمعوا كلامك لرجعوا عن قول مالك فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وأنشد أبياته الميمية المعروفة»[1].

ولكنه انتقى لمجلسه الثانى فى جامع المهدى أحاديث من لون آخر أملاها على الحاضرين وهم من الطبقات المختلفة بدأها فى قيمة النفس وحرمة الروح وأن من أنفق روحه فى سبيل اللّه نودى عليه فى الجنة هذا خير، ثم يوصله بمكرمة

(١) انظر: الملحق رقم ١٣ من البحث.

لأبى بكر أول الخلفاء تدل على منزلته عند اللّه والرسول، ثم يلحقه بحديث للدلالة على فضل عمر، وثالث للدلالة على منزلة عثمان، ثم يرفعه برابع فى مقام «علىّ» فى الإسلام وحمله الراية يوم القيامة كما حملها فى الدنيا، وبخامس فى دعوة النبى لهم جميعًا، وآخر فى حبّه لأبناء علىّ ـ الحسن والحسين ـ وأن من أحبهما كان مع الرسول يوم القيامة. ثم يأتى بحديث فضل زوجة النبى عائشة وصحابته وأن من سبّهم فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين.. ثم يورد حديثًا آخر فى أن الاختلاف بين أصحاب الرسول كاختلاف أضواء النجوم فمن أخذ بشئ مما هم عليه فهو على هدى.. وأن خلفاء الرسول إنما هم رواة أحاديثه وسننه، والذين يعلّمونها للناس.

ثم يختم مجلسه بمأثرة أخرىٰ لأبى بكر وثانية لعمر ومثلها لعثمان، وكيف وجدوا بعد اغتياله ورقة فى صندوق له، كتب فى باطنها شهادته، وفى ظاهرها أربع أبيات فى الحثّ على غنى النفس عند الفاقة والصبر على المكاره عند الشدة، فإن مع العسر يسرا، وإن من لم يقاس الدهر لم يعرف الأسى[1].

ولئن كنا لم نهتد إلى النسخة الأم من أمالى «النظام» التى خطت فى عهده وعليها إجازة منه فقد حالفنا التوفيق بالعثور على مجموعتين يحتويان على أجزاء فى الحديث والتفسير والأدب قيّمة وبخطوط قديمة تعود الى أوائل القرن الثامن ـ ٧٢٢هـ - وعليها من إجازات السماع والقراءة المتسلسلة ما يعود الى العقد الرابع من القرن السادس، أى سنة ٥٣٦هـ عمن سمع من «النظام» مباشرة.. وفى كل هذا ما يطمئنّا على سلامتها وضبطها وصحة نسبتها.

كانت المجموعتان من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق، وقد أرشدنى إليهما أستاذى المرحوم يحيى الخشّاب فرجعت إليهما واحتفظت بنسختين منهما. وكانت المجموعة الأولى تحت رقم ١١٥ - حرف - ١ - حديث وتشتمل على خمسة عشر جزءًا فى الأمالى المتنوعة فى أولها ـ جزء فيه مجلس

(١) انظر: الملحق رقم ١٤ من البحث.

واحد من أمالى «نظام الملك» أبي على الحسن بن على بن إسحاق (رحمه اللّه).. رواية الشيخ الإمام أبى نصر أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسى عنه، رواية ولد الإمام أبى محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر رواية الشيخ شمس الدين أبى القاسم عبد المحسن بن عبد اللّه بن أحمد ابن محمد بن عبد القاهر، رواية محمد بن أبى الفتح بن حسن النقاش الواسطي عنه. قرأه عليه إبراهيم بن أبى عبد الله بن أبى نصر الحلبى الشافعى عفا اللّه عنه.

وفى خاتمة سُمع جميع هذا الجزء من أوله إلى آخره على الشيخ الصالح محمد بن أبى الفتح بن حسن النقاش الواسطي بحق سماعه عن شيوخه محمد ابن محمد بن أبى على بن عمرون الحلبى بقراءة إبراهيم بن أبى عبد اللّه بن أبى نصر الحلبى الشافعى فى يوم الجمعة رابع عشر رجب من سنة ثلاثة عشرة وستمائة بحلب المحروسة ثم تأتى السماعات متواصلة في الفترة ما قبل ذلك وما بعده[1].

أمّا المجموعة الثانية فهي تحت رقم ٢٧٣ ـ حديث ـ وتشمل عدة أجزاء من الأمالى والتفسير والحديث واللغة كان ثانيها جزء فيه مجلسان من أمالى الصاحب «نظام الملك» أبى على الحسن بن علىّ بن إسحاق ـ رواية أبى القاسم نصر بن نصر بن على بن يونس العكبرى عنه، رواية أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن البنا عنه، رواية إسحاق ويعقوب ابنىّ أبى بكر الطبرى عنه سماعا، رواية أبى أحمد إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الطبرى عنها إجازة، رواية أبى محمد عبد اللّه بن محمد بن محمد البشاورى عنه إجازة، رواية أم هانئ مريم بنت على بن عبد الرحمن الهورسى عنه سماعًا.

وفى نهايةالجزء: سمع جميع هذا الجزء المشتمل على مجلسين[2] من أمالى

(١) انظر: المجلس الأول فى الملحق رقم ١٣ والسماعات عليه ٥٢٣.

(٢) وقد أعانني على تصوير هذين المجلسين زميل الدراسة الدكتور شكرى فيصل الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق، كما نشرا مع مقدمة ضافية بمجلة معهد المخطوطات العربية فى الجزء الثانى من المجلد الخامس ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، ص ٣٤٩ ـ ٣٧٨.

«نظام الملك» أبى على الحسن بن إسحاق الصاحب على الشيخة الأصيلة الحرة الكاتبة أم هانى مريم ابنة الشيخ نور الدين على بن القاضى تقى الدين عبد الرحمن الهورسى سبط القاضى فخر الدين القايانى بسماعها له على أبى محمد عبد اللّه بن محمد بن محمد البشاورى الملّى.. إلى أن يقول: «وصحّ يوم السبت الثامن من شعبان المكرم عام ستة وستين وثمانمائة بمنزل المتمعة بدرب ابن البابا فى القاهرة وأجازت»[1]. وقد اطلع على هذا الجزء ـ ابن حجر كما ورد فى معجمه[2].

وممّا يلفت النظر ويدل على أهمية تلك السماعات ليست عناية المحدثين ودقتهم فى متابعة رجال السند وتعيين الزمان والمكان الذى روى فيه الحديث والأشخاص الذين سمعوه للتثبت من صحته فقط، وإنما لدلالتها على أسماء الأماكن يومذاك وتحديد مواقعها، وبهذا يمكن الإفادة منها فى خطط المدن ـ طبوغرافية ـ الإسلامية فى تلك العصور.

ومن الطريف أن نعثر فى أثناء بحثنا كذلك على إجازة «النظام» بتسميع إملاءاته منحها لجماعة من العلماء بناء على طلبهم وقد نقلها الرافعى المتوفى سنة ٦٢٣هـ فى كتابه[3] فقال بعد أن أثبت له ثلاثة أحاديث لم ترد فى مجلسيه السابقين. وكتب إليه: «إن رأى مولانا ولىّ النعم صدر الاسلام أتابك رضى أمير المؤمنين أن يجيز لأبى المظفر عبيد اللّه بن الإمام أبى بكر محمد بن ثابت الخجندى وأبى المطهر حامد بن رجاء المسعدانى ولابنيه أبى القاسم وأبى طاهر، ولأبى منصور محمد بن أحمد بن عبد المنعم بن ماشاذه جميع ما يصحّ من مسموعات من الأحاديث».. فكتب تحته: أجزنا لهم أن يرووا عنّا ما يصحّ عندهم من مسموعاتنا بعد الاحتياط فيها».. وكتب: «الحسن بن علىّ بن إسحاق».

(١) انظر: المجلس الثانى من الملحق رقم ١٤ والسماعات عليه ٥٣٢.

(٢) ابن حجر العسقلانى ـ المعجم المفهرس ورقة ١٦٥ نسخة دار الكتب المصرية.

(٣) الرافعى ـ التدوين فى أخبار قزوين ورقة ٧٧٥.

وممّا بقى من أحاديث «للنظام» غير هذين المجلسين طائفة كبيرة تمثَّل بها فى كتابه «سياستنامة» فى مناسبات كثيرة وأخرى ذكرها ـ الرافعى ـ فى تدوينه. وثالثة أشار إليها غيره فى كتب السِير خلال ترجمته.. ولما يقتضيه منهج البحث من وجوب إعداد وعرض آثار المترجم له، فقد وجدت من النافع والضرورى معًا جمع تلك الأحاديث المتفرقة فى مجلس ثالث له ليتم بها بحثنا، لأنها ـ فى أغلب الظن ـ تشمل معظم ما أملاه فى مجالسه المفقودة إن لم تكن جميعها، إذ تصرح بعض المصادر القريبة العهد من «النظام» أن ـ أحمد بن محمد بن أبى العباس الأصبهانى ـ خرّج له الفوائد فى مجلدة ضخمة[1] ولكنها ضاعت لا نعرف عنها شيئًا اليوم.

والذى يلاحظ على هذه المجموعة الثالثة من الأحاديث المتفرقة أن قسمًا كبيرًا منها مقطوع السند، ولم يعتن راويها برجاله وأنها مختلفة الموضوع لاختلاف الأغراض والمناسبات التى استشهد بها، وأن من بينها الحكم والأمثال وقد أوردهما بشكل أحاديث لعلّها من إضافات النسّاخ[2].

جـ - المؤلّف المفقود:

وما ذكره المؤرخون من آثار ثقافية نسبوها «للنظام» كتاب رحلته إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان، وقد أطلقوا عليه اسم ـ سفرنامة[3] ـ غير أننا مازلنا نجهل حقيقته ومصيره، كما لم نجد له ذكرًا فى أمهات المصادر ومعظم الفهارس المطبوعة.

* * *

(١) المصدرالسابق.

(٢) انظر: ملحق رقم ١٥ من البحث / المجلس الثالث/ ٥٤١.

(٣) محمد عبد الرزاق ـ كتاب «نظام الملك» ص ٧٢، ٧٣.